

المركزية في المجال الاجتماعي

و علاقتها بالهوية و الأنوميا

أ.د. بوزيدة عبد الرحمان

أستاذة التعليم العالي

قسم علم الاجتماع و الديموغرافيا

جامعة الجزائر 2

مقدمة الدراسة:

لقد سبق أن تبينيت المفهوم التالي للهوية: الهوية هي شكل أولي وقاعدي من أشكال الفكر الإنساني يكون أداة ومرجعا أوليا ضروريا، واعيا كان أولا واعيا من اجل التماهي والترابط الاجتماعي أو التباعد وبالتالي من أجل التفاعل النفسي والاجتماعي وغيره. و تتمثل عملية إقامة الهوية في أحداث حدود غير طبيعية بل وهمية اجتماعية بين الذات الجماعية أو الفردية والآخرين ومن اجل ذلك فهي تقوم بتعريف ضمني وضروري، مهما كان سطحي، للذات والآخرين.

وهي تقوم في أغلب الأحيان بتعريف وصمي للآخرين وللذات مثل نحن المجاهدون وهم الحركة... إلى آخره ولكنه عملي ومصلحي...

فالمجتمع الذي لا يعرف هويته لا يعرف مصلحته وكذلك الفرد. ومن أجل ذلك فالهوية هي في بناء متواصل لان المصلحة الاجتماعية والمادية والمعنوية للمجتمعات في تغير متواصل عبر التاريخ والزمان. ورغم أنها شيء متغير ومؤقت فهي تعي نفسها كشيء ثابت وقار وغير قابل للتحويل. ومع ذلك فالهوية شيء يبني ويهدم ويعاد بناءه.

علاقة الهوية بالمجال:

إن " - الميكانيزم - الاستمولوجي للهوية يتمثل في تحديد فضاء مادي - مثل الجبل - أو اعتباري مثل أنا، نحن، تضاف إليه قيمة أو قيم فتصمه أو تعرف مثل جبل العزة، ونحن قوم لا نأكل حتى نجوع فإذا أكلنا فلا نشبع فالهوية بالمعنى المعرفي تتطلب حاملا ومحمولا والمحمول هنا هو فضاء ومجال مادي أو معنوي اعتباري".

و بما انها فضاء فالهوية لا يمكن فهمها وتبين ثباتها النسبي إلا في إطار حدود مصبوبة هي نفسها حدود مؤقتة تحاول أن تفرض نفسها كأطر ثابتة.

ووضع الحدود وإزالتها سواء أكانت حدودا مادية أو اعتبارية هو عمل استراتيجي بمعنى " كروزي" للكلمة وكذلك بالمعنى العادي.

و ذلك يعني أن بناء الهوية يتم في فضاء ومجال تشمله وتطاله سلطة بالضرورة والكلام عن السلطة يستحضر حتما مفهوم العنف بمعناه المادي والرمزي - فالسلطة هي عبارة عن احتكار للعنف المنظم بالمعنى السياسي - وهي قدرة الفرد أو الجماعة (أ) على جعل الجماعة أو الفرد (ب) أن يفعل ما تريده منه (أ) حسب المبدأ الذي اعتمده كروزي لتعريفه للسلطة. وبالتالي فالهوية هي تفاوض وجدل وحوار عملي مستمر حول العنف الضروري للخروج من هوية وتغييرها والإطاحة بمحدودها وإقامة أخرى.

وقد تكون الفروق بين مختلف الهويات ليست في حاجة إلى التذكير بها - مثل الهوية الاجتماعية والهوية النفسية.

إلا أنه لا بد من قول كلمة حول المفاهيم الفرعية داخل الهوية الاجتماعية نفسها.

فالهوية الاجتماعية تحمل عدة أبعاد ومركبة من عدة أبعاد جزئية، فهي تتكون:

- من التنشئة الاجتماعية القاعدية

- والتنشئة الاجتماعية الثانوية

- والتنشئة الاستباقية

- والهوية المهنية

والهوية الثقافية ... إلى آخره

مما دعى الفيلسوف *Michel Serres* إلى اعتبارها كلباس المضحك المرقع من أن سجة مختلفة. ولكل فرع من هذه الهويات فضاؤه الخاص الذي ينعكس بطريقة رمزية في الفضاء العمومي للمدينة.

هوية الفضاء وفضاء الهوية:

إن الهوية تمارس دورها وفعاليتها في فضاء عرفه *Claude Dubar* الذي وفق بين الهوية المهنية والهوية الاجتماعية كالتالي:

"إن مجال الاعتراف بالهوية الاجتماعية يتبع تماما (مدى) الاعتراف أو عدمه بالمعارف والكفاءات وصورة الذات (*d'image de soi*) وهي العناصر التي تكون النواة الصلبة للهويات"

إن الهوية كما رأينا تصنع من فضاء كما سلف وفي فضاء، ولكنها تصنع هي بدورها الفضاء. فلا يوجد في المجتمع فضاء طبيعي - بل إن الفضاء يصنع اجتماعيا. فالعلاقات الاجتماعية تنعكس رمزيا على الفضاء فتجتمع أو فيصبح اجتماعيا حسب منطقه الخاص.

فقد أسست المجتمعات العالم اجتماعيا منذ البدايات وذلك من خلال تمثلات يرى *Carlo Gyuinzburg* أنها تقوم على فئات ثنائية متضادة مثل - حار/بارد، واضح/غامض، فوق/تحت، أعلى/أسفل، مركز/هامش.

وهي متضادات فاعلة في الفضاء وفي الهوية على السواء وكل هذا نابع ومتجذر في الحدس الإنساني القديم الذي يفرز ويعارض بين الشبيه والمثيل بالتماهي.

المركزية وعناصر الفضاء:

إن الفئات الاجتماعية الأولى والتي لازالت قائمة حتى الآن التي لبس بها الإنسان الفضاء الطبيعي هي فئات أعلى/أسفل ومركز/هامش ويمين وشمال إلى آخره.

و هي فئات مختلفة تماما عن الفئات الهندسية، إنها فئات حاملة لقيم وبالتالي لعلاقات اجتماعية فقد وضعت الإنسانية والمجتمعات القديمة الحكمة والدكاء في الأعلى والغريزة والشهوة في الأسفل وذلك بدون تبرير أو إعطاء أسباب.

وقد تصور الإغريق الفضاء على ثلاث مستويات:

المستوى الأعلى وهو مستوى زوس والآلهة

المستوى الأوسط وهو مستوى البشر

المستوى الأسفل وهو مخصص للموتى وللقوى الشريرة.

كما تصور الإنسان والمجتمعات القديمة تنظيماً صارماً للكون، حيث اعتقد بأن الكون له مركز، وهو المكان المقدس بامتياز وفيه توجد وتستقر القوى الصانعة والمؤسسة للكون والمجتمع. لذلك وضعت المجتمعات القديمة المقدس فيما اعتبرته مركز المدينة مثل بابل وبيت المقدس ومكة. إن السلطة المقدسة في المجتمعات القديمة توجد في المركز أين يذهب المواطنون للتواصل معها وبالتالي مع بعضهم البعض.

و قد كانت مركزية مدينة *Athènes* —أثينا— القائمة على هضبة عالية تجمع بين رمزية العلو ورمزية الوسطية.

و على هذا الأساس كان إغريق أثينا القدماء يعكسون هذا التمثل والتصور على العالم القديم في إنتاجهم للفضاء الاجتماعي

فهم مثل الإله زوس يوجدون في المركز وهم إذا الشعب المختار أما نحن أهل المغرب مثلاً فنحن الهامش لأننا حسب تمثالهم مقر الأطلس الذي هو أحد الجبابرة المفسدين الذين كانوا سائدين ومفسدين في الأرض قبل ظهور [زوس] الإله الطيب الذي طهر منهم الأرض ونفى الأطلس إلى المكان الموجود فيه الآن وكلفه بحمل السماء كعقاب شاق — إلى أبد الأبدية ومسحه محوياً إياه إلى جبل وصخر.

وهكذا نكون بهذه التمثيلات قد بنينا كيف يبنى اجتماعياً المركز والهامش طبقاً لقيم السيد والمسود.

ونحن عندما نستعمل اليوم ألفاظ أعلى وأسفل ومركز وهامش لا نخرج تماماً على منهجيات الدلالات القديمة. إن رمزية الفضاء وسميائية الفضاء الاجتماعي تستمد دلالاتها من هذه المقولات.

فالرمزية في العلوم الاجتماعية تعرف تحديدات متذبذبة ولكنه يمكننا أن نلاحظ بأن الأصل. في الرمزية يعني ذلك الشيء المنشطر إلى شطرين يحمل كل مشارك في عملية الترميز شطراً من الدلالة يسمح لهما بالتعرف على بعضهما مهما حدث من تغيرات.

وهكذا يكون للرمز دور ووظيفة الجمع، وبذلك يكون للرمز بعد جماعي واجتماعي، وله أيضا بعدا كنائيا متفق عليه وهو بعد تعسفي مضاد للأول.

وفي كل الحالات فإن الأساس والمهم يمكن في عملية الترميز وليس في طبيعة الرمز، ولتعريف رمزية المجال والرمزية الحضريّة على الخصوص لا بد من تحديد وضعها داخل حقل الدلالات التي تستعمل لفهم المدينة وهي: التمثلات والصورة والهوية.

إن الرمزية متداخلة مع هذه المفاهيم الثلاث:

قراءة الفضاء الحضري وإنتاجه:

إن الفضاء الحضري كما أسلفنا ليس بالفضاء الطبيعي بل هو فضاء اجتماعي إن العلاقات الاجتماعية تنعكس في هذا الفضاء وتجعل منه منتوجا اجتماعيا مثل غيره من المنتوجات الاجتماعية كاللغة مثلا.

ويتم الانتاج الاجتماعي للفضاء بطرق معقدة ومتغيرة فالباحث *Pierre Pelligrine* على سبيل المثال يرى في مؤلفه: " دلالة الفضاء ": " أن هناك ثلاثة أنماط منطقية متلازمة في إنتاج الفضاء.

فهناك أولا منطق الضرورة والضروري، وهو منطق البنية الاقتصادية والتبادل الاقتصادي الذي يستلزم الأدوات العمرانية الضرورية التي تسمح بإنتاج وتسويق البضائع.

ثم هناك المنطق المثالي في إنتاج العمران، وهو منطق البنية الفوقية ويحمل في طياته بعد الرمزية وبعد الرغبة *le désir* و بعد المشروع *projet* الطامح إلى تغيير شروط العمران كما يوجد أخيرا منطق الممكن وهو منطق البنية التحتية الذي يكشف على الإمكانيات المادية الحقيقية المتوفرة لتنفيذ الأفعال والعمليات المزمع القيام بها.¹

إن تمازج وتركيب هذه الأنماط المتلازمة في إنتاج الفضاء العمراني يتغير بتغير المراحل والظروف.

فالمنطق المسيطر في الوقت الحاضر في إنتاج الفضاء العمراني هو منطق العولمة والسوق العالمية.

¹Pierre Pellegrin, le sens de l'espace, éd économique, Paris ; 2000 ; p8.

وفصل ذلك بأكثر دقة عالم الاجتماع *Jean-Pierre Garnier* حيث يؤكد بأننا اليوم أمام إعادة هيكلة عمرانية عالمية شاملة تمتد من باريس إلى بيكين مروراً بلندن ونيويورك. إن نخط إعادة الهيكلة هو ما يسمى بالهدم الخلاق وخاصة في البلدان التي أصبحت خدماتية بعد أن كانت صناعية حيث نقلت أحياء مركزية بكاملها إلى الهامش والعكس صحيح. وقد بدأت هذه الحركية مع بداية الربع الأخير من القرن العشرين أما دلالتها ومسبباتها فيراها الباحث كالتالي: "إن تزايد النشاطات الخدماتية المتسارع منذ الربع الأخير من القرن العشرين قد أفرز ظهور طبقة متوسطة جديدة مرتبطة بتمحور الوظائف الأساسية المالية والقانونية والثقافية ضمن فضاءات حضرية جديدة في حجم مدن كبرى على المستوى العالمي أو الوطني. ولابد من ملاحظة أمرين هاميين في هذا التطور وهما:

أولاً: الصعود الكاسح لقوى العمل الفكرية المدعمة برأس مال مدرسي (شهادات جامعية عليا) والمنشغلة باستثماره قبل كل شيء، وقد ربطت هذه الفئة مصيرها بمصير البرجوازية. **ثانياً:** التراجع والتفكك للحركة العمالية الذي أنجز عنه إفلاس مشاريع التغيير الجذري والانعقاد الجماعي للمجتمعات التي كانت قائمة على الحركة العمالية"¹

وقد أدى ذلك إلى فقدان الفئات العمالية لفضائها داخل المدينة ومحاوله افتكاكه بشتى الطرق تحت شعارات مختلفة كمكافحة إقامة المدن القصديرية أو محاربة الانحراف والجريمة وتهدم الأحياء القديمة وذلك من أجل إقامة البنية التحتية والمعمار المتماشي مع العولمة التجارية والمالية. وهكذا فالتهيئة العمرانية - كمصلحة استجابت بواسطتها المجتمعات الصناعية في القرن التاسع عشر إلى أساليب الإنتاج والتبادل أصبحت اليوم أداة تقنية في صالح أسلوب الإنتاج الرأسمالي المعولم.

ويمكن القول بعجالة لإنهاء هذه النقطة - بأن المدينة بصفة عامة تكون نسقا عمرانيا مترابطا ضمنيا وباستمرار مع بقية الأنساق الأخرى: السياسي والاقتصادي والديني والثقافي وغيره، فيها تولد الهوية وتزول وتبعث من جديد متأثرة بها ومؤثرة فيها في تفاعل جدلي. إن شكل وهندسة المدينة ومركزها وهامشها ما هي إلا انعكاس للعلاقات الاجتماعية والسلطات المتواجدة فيها.

¹ Jean Pierre Garnier « les capitales du capital » ; in le monde diplomatique ; avril 2010.

فمع الثورة الصناعية والتصنيع تراجعت بنية العمران المعلمي المقتصر على بعض المعالم الكبرى المحسدة للضمير الجمعي مثل دور العبادة والمؤسسات الرسمية، لتترك المكان لبنية عمرانية توزيعية اقتصادية في الوسائل حيث أصبح السكن بضاعة كغيره من البضاعات.

وقد انتقلنا في المرحلة الحالية إلى مرحلة إعادة تأهيل العمران والمدينة ليتماشيا مع مرحلة العولمة وسيادة الرأس مال النقدي الذي يميز المرحلة الحالية وفتاتها الاجتماعية الجديدة غير أن أسلوب الانتاج الرأس مالي الحالي - لا يتميز فقط بالعولمة وهيمنة الرأس مال النقدي بل انتقل من برد يقيم الانتاج الميكانيكي إلى برديقم الانتاج الالكتروني وكذلك يحاول الانتقال من الانتاج الملوث للمحيط إلى الانتاج الغير ملوث وكل هذا يلقي بظلاله على العمران الجديد.

هذا بالإضافة إلى الخصائص التي تتميز بها مدينة العالم الثالث أو مدينة الجنوب كما تسمى في بعض الادبيات.

مدينة الجنوب والانوميا:

ومدينة الجنوب هي عبارة عن وحدات حضرية عرفت في أغلب الاحيان نموا سريعا وانتشارا في الفضاء. وكذلك انفجارا ديموغرافيا أدى إلى تزايد وتفاقم في اللامساواة وتعددا في أنماط العمران، حتى أصبحت المدينة فضاء الفقر فيه هو المعيار السائد.

ولا يمكن للأفراد في خضم هذا التغير المتواصل المتداخل أن يتعاملوا بمعيار واحد بل يجدون أنفسهم مضطرين لاستعمال عدة معايير مؤقتة لأن المدينة لم تعد موحدة لم تعد عالما واحدا بل أصبحت عوالم يصبح الفرد بدوره مضطرا لأن يتحول إلى أفراد حسب تعبير *M. Gouyou* الذي استعمل مفهوم الانوميا قبل دوركايم، وبهاته الطريقة المختلفة عن دوركايم الذي استعمل نفس المفهوم بمعنى زوال المعايير السائدة في الظاهرة الاجتماعية المعتلة.

وهكذا يصبح الفضاء الانومي عند "قويو" او الفضاء اللامعباري: هو الفضاء المتواجد في حالة تغير مستمر بحيث تكون العلاقات الاجتماعية فيه تتطلب إعادة تنظيم مستمر.

أمثلة عن بناء الهوية والمجال:

1 هوية مدينة الجزائر والجزائر في العهد العروجي:

لقد واصل الاسبان بعد سقوط غرناطة اخر الممالك الاندلسية سنة 1492 الضغط على المغرب الاسلامي أين لجأ عدد كبير من الاندلسيين محاولين إقامة حرب العصابات البحرية والقرصنة ضدهم.

فاختلوا المرسى الكبير سنة 1505 ونهبوا وهران بعد ان اختلوها سنة 1509 ثم بجاية سنة 1510، ثم اختلوا الجزيرة الصغيرة التي كانت متواجدة عرض البحر على عدة أمتار من مدينة الجزائر وبنوا فيها قلعة حربية مجهزة بالجند والمدافع بصفة مستمرة وذلك لمراقبة مدينة الجزائر ومينائها الصغير آنذاك لمنعها من المساهمة فيما كان يسمى بالجهاد البحري وهو عبارة عن حرب عصابات بحرية.

مما ألقى الذعر لدى سكان مدينة الجزائر آنذاك التي كانت ضعيفة معزولة فأعلنوا الخضوع للملك الاسباني وعقدوا معه معاهدة لمدة عشر سنوات التزموا فيها بدفع ضريبة لإسبانيا في انتظار الفرصة المواتية للتخلص من هذه الورطة. وموت الملك الاسباني "فردنان" الذي عقدوا معه المعاهدة وكانت وفاته سنة 1516، رأى أمير الجزائر آنذاك سليم التومي بموافقة نخب المدينة وسكانها أن يغتنموا هذه الفرصة ليطلبوا من المجاهد المستقل عروج وإخوته وأصدقائه الذين كانوا متواجدين بجيجل في مهمة جهادية ان يلتحقوا بالجزائر للقيام بتحرير المدينة من الشكنة العسكرية الاسبانية التي كانت تحاصرها. فاستجاب للنداء ورمي القاعدة الاسبانية لمدة 20 عشرين يوما متواصلة، ثم أعاد الكرة بعد أن تخلص من بعض المؤامرات التي حاكها الاسبان له إلى أن حررها في نفس السنة 1516 ثم أعاد... المدينة وتأسيسها على هوية وقيم التصوف الجهادي الشعبي.

فقد ظهرت قبيل العهد العثماني طائفة من المتصوفين الشعبيين مثل عبد الرحمان الثعالبي ومحمد الهواري وأحمد بن عبد الله وإبراهيم التازي ومحمد بن يوسف السنوسي ثم بعدهم أحمد بن يوسف الملياني ومحمد أفغول ومحمد بن شعاعة ومحمد التواقي البجائي وكلهم عاصروا العهد التركي العثماني وتفاعلو معه. و قد كان اغلب هؤلاء المتصوفون والمرابطون يتدخلون في الجهاد ضد الاسبان من خلال الرباطات التي أقاموها.

كما أعيد تأسيس أهم المدن على بركة أحد المتصوفة والمرابطين وهذا ما تم في مدينة الجزائر مع عبد الرحمان الثعالبي الذي أصبح مولى المدينة بعد أن استقر في أعاليها، وقد دعى الثعالبي أهل مدينة الجزائر وضواحيها إلى الجهاد وجمع العدة للحرب والمقاومة كما حث سكان مدينة بجاية

أيضا على الجهاد والصمود وكذلك فعل التواقي والهواري والتازي ومحمد بن يوسف السنوسي وكلهم من أتباع الشاذلية والشاذلي الذي تأثر بدوره بعبد السلام بن مشيش تلميذ أبي مدين. أما عن المحيط العام التصوفي فقد ذكر "ديقوهيدو" بأنه كان يوجد في مدينة الجزائر في القرن السادس عشر حوالي 200 مرابط في مدينة الجزائر وجبالها وضواحيها بين سكان محليين وأتراك ومسيحيين أسلموا.

وقد وصفهم قائلا بأنهم يحملون السبحة على صدورهم مرددين شعارات، الله أو أستغفر الله أستغفر الله أستغفر الله وقال أنهم يدعون بهذا الدعاء بقوة وبكثرة حتى يسيل اللعاب على صدورهم ويسقطون مغشيا عليهم. وهم يسيرون في المدينة حفاة الاقدام عادة، لا يلبسون إلا برنسا قديما ممزقا، رؤوسهم عارية ويدهم عصا يعيشون على الصدقة. وهم محبوبون، حسب قوله، من سكان المدينة وخاصة النساء اللاتي يتبركن بهم ويزرنهم من أجل قضاء حاجتهن من إنجاب وزواج وغير ذلك.

ويدعي هؤلاء المتصوفة الشعبيون بأنهم وصلوا إلى درجة من التعبد أصبحوا معها لا يشعرون بالألم فيحرقون رؤوسهم بقضبان من الحديد المحمي في النار أو بالجمر كما يقطع بعضهم لحم صدورهم وسواعدهم بحد السكين محدثين بذلك جروحا كبيرة. كما يحرق آخرون لحومهم وجلودهم ويشعلون فيها النار بواسطة قطن مبلل بالزيت تشعل فيه النار.

ويحضى اغلب هؤلاء المتصوفة المرابطون بعد موتهم ببناء مقام ومسجد حول قبرهم مثل سيدي علي الزواوي وسيدي عبد العزيز وسيدي نونة وسيدي بوتكة وكلهم من مرابطي باب الوادي ومن أبناء القرن السادس عشر¹.

أما خارج باب الوادي فيوجد حسب نفس المصدر ضريح سيدي عبد الرحمان القرن 15 عشر (توفي سنة 1468) وضريح سيدي الجامي المتوفي سنة 1556 م وضريح سيدي يعقوب الأندلسي إلى آخره.

وبهذا انعكس التصوف الشعبي على عمران الجزائر العروجية كما أعادوا تأسيس هذه المدينة على قيم المحروسة والجهاد الشعبي، أو التصوف الشعبي العسكري.

¹Dégo de Haëdo, Typographie et histoire générale d'Alger ; Grand Alger livres ; 2^{ème} édition 2004 ; P 112 à 122.

وقد أدى هذا التصوف الشعبي العسكري إلى مركزة المدينة المتمثل في فضاء السلطة وقصر الحكم في قلب الصف الأول من الفضاء المواجه للعدو الأساسي المفترض قدومه من البحر. إن هذا المبدأ هو المجدد الرمزي لشخصية مدينة الجزائر وروح العمران العروجي¹. وهكذا أصبح المركز الاجتماعي والسياسي والرمزي لمدينة الجزائر نتاجا اجتماعيا مرتبطا بهوية جديدة هي هوية التصوف الجهادي الشعبي لا علاقة له بالمركزية الهندسية بل هو على عكسها تماما حيث كانت دارا الداي في مكان ساحة الشهداء اليوم أي على الهامش الهندسي للمدينة وهكذا تموقع دار السلطان عمرانيا كما يتموقع الرباط في أقرب موقع من العدو وهو ما تميزت به الجزائر دون غيرها من العواصم الإسلامية آنذاك.

وقد أصبحت هذه الظاهرة العمرانية شعارا للمبادئ الجديدة والهوية الجديدة التي قامت عليها مدينة الجزائر حتى أنه لما حول علي باشا مقر السلطة إلى أعالي القصبة بعد أكثر من ثلاثة قرون وبعد أن بدأ الوهن يدب في أوصال الدولة وقيمها، أنتاب الاهالي شعورا بنهاية الدول العروجية وقال الدراويش:- " بعلي تعلی (يقصدون علي باشا ونقله لدار السلطان من الجنية إلى برج القصبة) وعلى الحسين تتحسى (ويعنون حسين داي) وهم يتنبؤون بزوال الدولة العروجية مع حسين داي [فتتحسس ومعناها تغرق] .

2- الهوية العثمانية وصناعتها في الجزائر:

إن الهوية العثمانية هي في الأساس هوية ثقافية روحية سياسية وليست هوية عرقية كما يعتقد البعض ونريد أن نسوق في هذا البحث مثالا ملموسا على إنتاج الهوية الموقفة أو التوفيقية بين الأتراك والسكان الأصليين وتتمثل في كيفية التعريب والجزارة لأحد الدايات الأتراك ألا وهو الداي ولدش (1707-1710).

لقد وصل هذا الداي المنحدر من أصل تركي أناضولي إلى الجزائر كمجرد جندي-ولدش-و ترقى في مجال الانكشارية والديوان إلى أن أصبح دايًا.

ونحن نقدم القصة حسب المخيال الاجتماعي السائد آنذاك كما رواه محمد بن ميمون الجزائري الذي كان معاصرا لهذا الداي في كتابه " التحفة المرضية في الدولة البكداشية"¹.

¹ ميمون الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية، الشركة الوطنية

يبدأ الكتاب بتقديم والد الداي حسب التقاليد والمخيل السائد آنذاك حيث يمنح لأبيه إسماعيلاً أصيلاً ويختلق له نسباً قرشياً قائلاً عن أبي الداي:

"وهو نور الدين أبو الحسن علي بن محمد القرشي النسب"

وبذلك يعطيه شرعية للإمامة من باب أن الأئمة من قریش.

ثم يصطنع له هوية فضائية عربية إذ يقول: "العربي الاقليم"، ويجرده بالمقابل من هويته التركية-و يجعل من الأناضول تركيا دار إقامة فقط حيث يقول: "النكداني الدار والمنشأ وبها توفي" و "نكدا" مدينة صغيرة بالأناضول. ثم يجعل طموح بكداش للسلطة مقدراً منذ البداية لأنه استند إلى مجد عائلي تليد حيث يقول: "وأوصى مولانا منذ كان صغيراً، أن أبني هذا على الغرب سيكون أميراً" ويجعل ابن ميمون البكداش على اتصال منذ البداية يأخذ أعلام التصوف الشعبي الجهادي الدفاعي أحمد البدوي وليد فاس سنة 1199م، ودفن طنطا بمصر سنة 1276م، وصاحب الطريقة البدوية التي انضم إليها الظاهر بيبرس آنذاك.

يقول ابن ميمون في هذا الصدد: "وله بسيدي أحمد البدوي يد سابقة ولاحقة".

وهكذا يصبح بكداش ينتمي لقریش صاحبة الامامة الشرعية من جهة وإلى التصوف الشعبي السائد خاصة بالمغرب العربي والجزائر ويواصل ابن ميمون تقديم البكداش قائلاً: "ولما كمل شرح شباب مولانا أقبل إلى الجزائر، يا حبذا به من زائر وذلك في سنة 1086 هجري (1617 ميلادي) فانتظم به الشمل والتف، فكتبوه في العسكر كالعادة وذهب للدار المعتادة.

وهكذا أصبح بكداش زائراً بعد أن كان انكشارياً متطوعاً يبحث عن لقمة العيش -ثم ليس زائراً غريباً بل لأهله حيث انتظم به الشمل والتف.

وقد كانت لبكداش سيرة عسكرية عادية في البداية ثم أرسل بعد ذلك في محلة خارج الجزائر لجمع الجباية. وبهذه المناسبة سيجزأ تصوفه وتعطى له هوية جزائرية فعندما تذهب محلته إلى عناية- بونة- أين يوجد المتصوف أحمد بن قاسم المعروف بابن ساسي البوني المتوفي سنة 1727 م خليفة الشيخ طراد المؤسس لهذه الطريقة التي هي في أغلب الظن فرع من الطريقة الشدية، وكان يفتخر بأنه قطب الولاية، ويروي أنه قال: "كنت صاحب الخضر والان أنا سيده"

¹ محمد بن ميمون الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.

فأتصل بكداش بابن ساسي البوني ممثل التصوف الشعبي الجهادي الشافعي فأكمل تحويل هويته - فحول اسمه من بكداش وهي تركية تعني الحجر الصلب إلى محمد فأصبح بكداش لقباً- كما أكد طموحه في السلطة بعد أن أدخله في طريقته.

وجاء هذا التأكيد على صورة رأيي رأها أحد أتباع ابن الساسي حيث طلب منه الرسول في المنام: "أن أخبر بكداش بأنه سيموت على حسن العاقبة" و قد استمرت تبعية كداش لهذه الطريقة حتى بعد أن أصبح دايا وفتح مدينة وهران وطرد منها الأسبان. وهكذا نرى كيف فعل ميكانيزم صنع الهوية الاجتماعية فعلته للتقريب بين الهويات المختلفة والمتباعدة بين الحاكم والمحكوم. وأصبح بكداش بعد كل هذا يدعى رسمياً:

أمير المؤمنين محمد بن علي بن محمد الشريف الحسيني، النكادي ولم يبق له من أصله الأول إلا الإشارة إلى البلد الذي ولد فيه -نكاد-.

الهوية الاستباقية والمجال - من خلال عينة أمبريقية مقيمة بمدينة ورقلة

إن التنشئة الاجتماعية الأولى تلعب دوراً أساسياً في بناء الشخصية القاعدية لاشك في ذلك، فعن طريقها تستبطن المعايير الاجتماعية وتدمج في الشخصية وتصبح جزءاً لا يتجزأ منها. وقد مال علماء الاجتماع اليوم إلى اعتبار التنشئة الاجتماعية عملية متواصلة طويلة الحياة، وفي هذا الاتجاه قسم *P.Berger* و *T.Lukman* التنشئة الاجتماعية إلى:

- التنشئة الاجتماعية الأولية التي تتم في عهد الطفولة
- التنشئة الاجتماعية الثانوية وهي مستمرة وقد عرفها على أنها: "تنشئة لاحقة تمارس على فرد تمت تنشئته الأولية من أجل إدماجه في قطاعات إجتماعية جديدة"¹.

أما *Merton* فيعتقد بان هنالك نوع ثالث من التنشئة الاجتماعية هي التنشئة الاستباقية التي تكون العنصر الاساسي في الهوية الاستباقية.

وقد عرفها "مارتون" على أنها: "الحالة التي يميل فيها الافراد إلى تقمص قيم وسلوكات الجماعات التي يتمنون الارتباط بها والانتماء إليها بدلا من قيم وسلوكات الجماعة التي ينتمون إليها فعلا".

¹P.Berge et I.Lukman ; la construction sociale de la réalité.

وفي هذا الاطار تمت دراسة عينة من الشباب الجامعي بورقلة تشتمل على حوالي 160 فردا للتعرف هويتهم الاستباقية من طرف احد الطالبات لإعداد ماجستير في إطار مدرسة الدكتوراه. وقد أدخلت الباحثة التنشئة والهوية الاستباقية في إطار الفضاء المفضل على مستوى القطر للإقامة والعمل، واعتبرت ان مؤشر الإقامة المرغوب فيها من ضمن عناصر الاساسية في بناء الهوية. ودون الدخول في التفاصيل توصلت إلى أهم النتائج التالية* إن الهوية الاستباقية القائمة على التنشئة الاستباقية هي اقوى لدى الفئات الاجتماعية المتوسطة والمتواضعة منها لدى الفئات المحظوظة.* إن الهوية الاستباقية القائمة على التنشئة الاستباقية هي لدى الذكور أقوى منها لدى الاناث. اما مضمون هذه الهوية الاستباقية فهو يشمل:

- الانتقال من الجنوب إلى الشمال أساسا من حيث العيش والإقامة
- والسعي إلى الوظائف الحكومية أساسا من حيث المهن
- والميل إلى الفيلا والشقة الواسعة من ناحية السكن
- والرغبة في الاجرة المرتفعة من ناحية الدخل
- وكذلك الميل إلى استعمال العطر المستورد والجزائري الباهض الثمن بالنسبة للتعامل مع الروائح وهذا يدل من ناحية الفضاء على الجاذبية الرمزية القوية جدا التي يمارسها الشمال كمركز حقيقي أو متخيل، أي مبني اجتماعيا للسلطة والريع والحياة السهلة الرغدة، عكس الجنوب المتخيل.
- وهذا ما نراه ونلاحظه جليا في الاستجواب الذي نشرته جريدة الوطن اليومية- للطاهر بلعباس في عددها الصادر يوم 22 أكتوبر 2010، وهو يتكلم باسم مجموعة من الشباب العاطلين عن العمل بولاية ورقلة بما فيهم الجامعيين، وهم عازمون على إقامة إضراب غير محدود عن الطعام بسبب المحسوبية التي تمارسها وكالة التشغيل بورقلة حسب تصريح بلعباس وهم يتهمون وكالة التشغيل بتخصيص المناصب الهامة للأقارب والمعارف وذوي النفوذ ولا يبقون لأبناء الولاية إلا المناصب الغير مرغوب فيها. بقول بلعباس في هذا الصدد:
- "إننا نريد مناصب شغل هامة حسب تخصصنا، هل من يريد أن يغير حياته جريمة ومن يريد أن يغير وسطه الاجتماعي وأن يقتات أحسن ويلبس أحسن ويتزوج جريمة؟"
- ويضيف في مكان آخر:
- "حتى الحيوانات لا تقبل - الحقرة - وهي ترد بالعنف على من يضربها."

وعن سؤال يتعلق بعدم توظيف هذه الجماعة من طرف الشركات الاجنبية يجيب بلعباس: " لقد طلبوا مني ان أكون لابسا لحذاء بينما أسير طيلة السنة بخف "كلاكات"، إني فقير وعاطل عن العمل.

لكن قوانين الدولة الجزائرية أعطتني نوعا من الاسبقية بصفتي من مواليد هذه المنطقة وإذا كانت لي نفس المؤهلات فالأسبقية لي حتى إذا كنت بدون حذاء وبدون روائح (déodorant).
إن الذي اريده هو العمل المتعب والعمل الوسخ والذي لا يتطلب قدرات ذهنية، العمل الذي يناسب شكلي ووجهي « *Facies* ». وإني ألتزم بتحسين لباس يوبا لتطيب والتعطر بمجرد أن أحصل على أجلي. إني أريد عملا شريفا (*digne*) بينما يريدوني أن أكون وحشا عنيفا يمشي حافي القدمين في عين منطقته. إن لدينا شبابا مؤهلا، نظيفا جميلا ومتقفا إن الآخرين لا يمتازون عنا في أي شيء"

كما يدعي بلعباس بأن مدير وكالة التشغيل بورقلة يصم الورقليين بالكسل ويعد بالذهاب إلى العاصمة للدفاع على هاته القضية. والملاحظ هنا اننا في صراع بين هوية مهنية مرتقبة وهوية اجتماعية عامة تبدو مناقضة لها في مجال وفضاء حضري متنازع عليه بطريقة رمزية وكذلك معلنة. وبما أن الهوية والمجال في بناء مستمر حيث بالإمكان تغيير هوية المكان والفاعلين باستمرار بحيث يمكن للمركز أن يصبح هامشا وللهامش ان يصبح مركزا.

كما يمكن إقامة مراكز جديدة وحدود جديدة باستمرار وهذا ما وقع لقصة الجزائر التي كانت مركزا وهوية طيلة قرون عديدة ولم تستطع فترة الاستعمار ان تحولها إلى هامش معنويا وكانت الهوية المرتبطة المهيمنة بهذا الفضاء قد تم تلخيصها في المثال الشعبي الذي يقول "" كونك قصابوي ظريف ومعناوي". أما اليوم فقد أصبحت هامشا يقطنها الإغراب ويسخر منها الوافدون رغم ان الموضوع لم يتغير ومن النكت الشعبية المعبرة عن تدهور الهوية القصابوية نكت سيد علي، حيث يناديه صديق له قائلا: " سيد علي! سيد علي! شفت أختك في البحر مع واحد"

فيحييه بنفرة: "او خلعتني يا خو! حسبتي USMA - خسرت!"

ومما عرفته الجزائر العاصمة أيضا في الثمانينات حول قضية المجال والهوية- هو مسألة مقام الشهيد الذي كان يتم بنائه في سياق اجتماعي سياسي يتميز بصعود التيار الاسلامي.

وقد اعتبر الاسلاميون بأن الدولة بإقامتها لمقام الشهيد أرادت أن تجعل للعاصمة مركزا تدور حوله حياة المدينة، بينما كانوا يرون بأن المركز الاعتباري للعاصمة هو مساجدها فحولوا العملية إلى كفر لأنها لائكية في نظرهم. وأطلقوا على مقام الشهيد اسمصم: "هبل" وأرجعوا أسباب الازمة الاقتصادية التي عرفتها البلاد في الثمانينات إلى النفقات الطائلة التي تطلبها إقامة هبل حسب تصريحات بعضهم. إن كل هاته الامثلة تبين مدى ارتباط البناء الاجتماعي للهوية والمجال في سياق المجتمع الجزائري الذي يتميز بالتغير الاجتماعي الشديد السرعة تميزه الانوميا ويطبعه الصراع بين الهوية والمجال وملؤه التناقض بين مجال الهوية وهوية المجال وكذلك بين المركز والهامش.

كما أنه لا يمكننا أن ننسى الصراع الذي يدور منذ سنوات والذي مثل بقوة كل هذه التناقضات التي ذكرناها، حيث أصبحت مدينة غرداية ومجالها مرتع صراع بين هويتين:

-الهوية القديمة الراسخة في العمق الديني والعمراني.

- والهوية الثانية التي كانت هامشية منذ سنوات وقرون لكنها أصبحت أقوى ديموغرافيا واقتصاديا وأقرب للتعريف الرسمي للهوية الوطنية.

قائمة المراجع:

- 1 - أنظر مداخلة - ع. بوزيدة بعنوان: المغرب القديم بين المقاربة التاريخية والمقاربة السوسيو - إنسانية في اليوم الدراسي للمركز الوطني للبحث في عصور ما قبل التاريخ وعلم الانسان وتاريخ الجزائر 1996.
- 2 - محمد بن ميمون الجزائري، التحفة المرضية في الدولة البكداشية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.
- 3- *Pierre Pellegrin, le sens de l'espace, éd économique, Paris ; 2000.*
- 4- *Jean Pierre Garnier « les capitales du capital » ; in le monde diplomatique ; avril 2010.*
- 5- *Diégo de Haédo, Typographie et histoire générale d'Alger ; Grand Alger livres ; 2^{ème} édition 2004 .*
- 5- *P.Berge et I.Lukman ; la construction sociale de la réalité.*